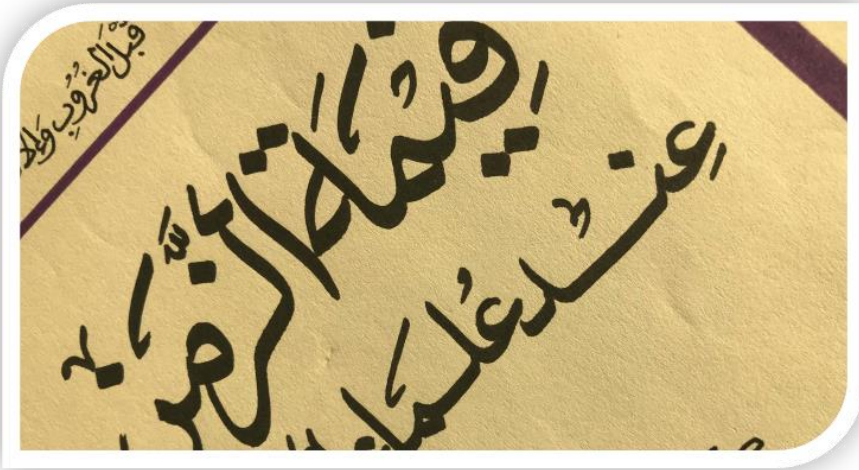


تجربة قلم
(3)

محبوب
الإصدار التاسع عشر

قيمة الزَّمن

عند علماء الإباضية



بقلم
سلطان بن مبارك بن حماد الشيباني

سلسلة: تجرية قلم
الحلقة الثالثة
قيمة الرَّمَن عند علماء الإباضية

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الرقمية الأولى
جمادى الأولى 1443هـ/ كانون الأول 2021م

محبوب

محبوب للنشر الرقمي
مسقط/ سلطنة عُمان
البريد الإلكتروني:
mahboub.pd@gmail.com

قيمة الزَّمن

عند علماء الإِباضية

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،
وعلى آله وصحبه ومن والاه

● تمهيد:

تشرَّفْتُ منذ أمدٍ بتجربة القلم، أتشبهُ فيه بأهل الفضل في البنان؛
فأحاكي خطوطهم، وأتشبهُ بأهل الفضل في البيان؛ فأحاكي أسلوبهم،
وأتعاطى التشبُّه بأهل العلم لعلِّي أحاكي ذرَّةً من علمهم.
ونالت خرابيش الصِّبا حظوةً لا تستحقها، حتى استنفعت محلات
التصوير من ظهر الفقير! حسبي أني جنيتُ من ورائها حُسْنَ تقويم
العارفين، وسديدَ نظرات الناقلين، وجميلَ توجيهات الباحثين، وكريمَ لحاظ
المبصرين.

ثم إنها انتشرت بين أيدي الناس، ورُفِعَ بعضها في قنوات التواصل
وشبكات المعلومات، وما هي إلا (تجربة قلم) ما أكثر عثراته!
وأنا أنشر بعضها هنا - كما هي - للذكرى والعبرة، لا مباهاةً بها، ولا
توثيقاً لِمَا جاء فيها، والله المسؤول أن يأخذ بأيدينا إلى جادة الصواب، وأن
يجنبنا الزلل، ويوفقنا لصالح العلم والعمل.

قَالَ السَّيِّحُ الْجَلِيلُ خَلْفَانُ بْنُ حَمِيلٍ السَّيَّانِي:
يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا الْيَوْمُ فَاجْتَهِدِي
قَبْلَ الْغُرُوبِ وَالْآفَاتِ وَارْتَحَلَا

فِيْمَا الرَّمْنِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْإِبَاضِيَّةِ

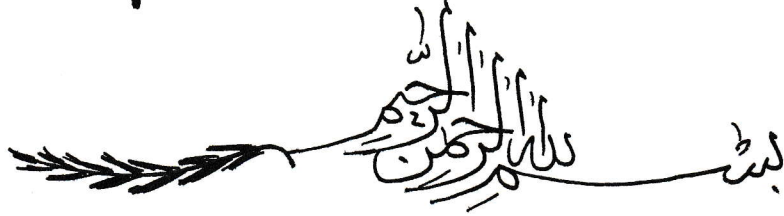
كَلِمَاتٌ مُضِيئَةٌ
وَمَوَاقِفُ مُشْرِقَةٌ
مِنْ سَيَرِ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْإِسْتِقَامَةِ

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

بِقَلَمِ
سُلْطَانِ بْنِ مَبَارَكِ بْنِ حَمْدِ الشَّيْبَانِي
رَبِيعُ الْأَوَّلِ ١٤٢١ هـ

وَأَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا
يَعْمَلُونَ فِيكَ
فَاعْمَلْ فِيهِمَا

الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ
عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه



- ١- إِنَّ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى ، وَلَا يُمْكِنُ لِلْبَشَرِ أَنْ يَحْصَوْهَا أَوْ يُدْرِكُوهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا ، وَذَلِكَ لِكَثْرَتِهَا وَاسْتِمْرَارِهَا وَتَبَيُّرِهَا ، وَتَتَابُعِ إِنْغَامِ اللَّهِ بِهَا ^(١) ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ : ﴿وَلَنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ^(٢) .
- ٢- وَلَئِنْ مِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ النِّعَمِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرِ الْمُنْعِمِ بِهَا : نِعْمَةُ الزَّمَنِ ، فَهِيَ مِنْ أَصُولِ النِّعَمِ وَأَجَلُهَا قَدْرًا وَأَعْظَمُهَا خَطَرًا ، وَبِقَدْرِ مَا يَشْكُرُ الْإِنْسَانُ هَذِهِ النِّعْمَةَ وَيَسْتَغْلِيهَا الِاسْتِغْلَالُ الْأَمْثَلُ يَسْتَعِدُّ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ، وَبِقَدْرِ مَا يَكْفُرُهَا فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا يَخْسِرُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ^(٣) .
- ٣- وَلَأَهَمِّيَّةُ الْوَقْتِ وَعَظِيمُ قَدْرُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَقْسَمَ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ ، فَقَدْ أَقْسَمَ بِالْحَضَرِ - وَهُوَ الْوَقْتُ عَلَى مَا يَرَاهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ - وَأَقْسَمَ بِأَجْزَاءِ مِنَ الْوَقْتِ كَالْفَجْرِ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ وَغَيْرِهَا .
- ٤- وَكَمَا جَاءَ الْقُرْآنُ مُلَمِّعًا إِلَى أَهَمِّيَّةِ الْوَقْتِ جَاءَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ - عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلِيمِ - حَاشَةً عَلَى الْإِنْفَاعِ بِالْوَقْتِ ، وَحَاضَةً

(١) عبد الفتح أبو غدة ، قيمة الزمن عند العلماء . ص ١٥ .
(٢) الآية ٣٤ سورة إبراهيم ، والآية ١٨ سورة النحل .
(٣) أغلب ما يرد هنا في هذه المقدمة مَلَخَصٌ من محاضرة للشيخ الغاربي حفظه الله ، عنوانها : «الوقت عَمَارٌ أَوْ دِمَارٌ» .

على الاستفادة منه، ومُبَيَّنَةٌ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُغْبَنُونَ فِي عَدَمِ الانْتِفَاعِ بِالْوَقْتِ، فِي كَلِمَةِ الصَّحِيحِ: «بِغَمَتَيْنِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ». فَالصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ إِنْ اجْتَمَعَا لِشَخْصٍ مَا وَلَمْ يَسْتَخِرْهُمَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَتَحْصِيلِ الْعِلْمِ النَّافِعِ فَإِنَّهُ - وَلَارِيبَ - يُعَذِّبُ مَغْبُونًا، إِذْ إِنَّ هَذَيْنِ الْأُمْرَيْنِ يَنْدُرُ أَنْ يَجْتَمِعَا لِشَخْصٍ وَاحِدٍ.

٥- وَلَمَّا مِنْ أَوَّلِ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: السُّؤَالُ عَمَّا فَعَلَ بِزَمَانِهِ وَفِي وَقْتِ شَبَابِهِ خَاصَّةً، فَقَدْ جَاءَ فِي كَلِمَةِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ».

٦- وَعَطْفُ الشَّبَابِ - وَهُوَ أَحَدُ مَرْحَلَةِ الْعُمُرِ - عَلَى الْعُمُرِ إِنَّمَا ذَلِكَ لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِ وَأَهَمِّيَّتِهِ، فَهُوَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ لِلْعَنَائَةِ بِهِ، لِأَنَّ مَرْحَلَةَ الشَّبَابِ - كَمَا يُقَالُ عَنْهَا - هِيَ الْمَرْحَلَةُ النَّهْبِيَّةُ مِنْ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، فَهِيَ مَمْلُوءَةٌ قُوَّةً وَنَشَاطًا وَفُتُوَّةً وَطُمُوحًا وَأَمَالًا، وَكَمْ تَغْنَى الشُّعْرَاءُ بِالشَّبَابِ بَعْدَ فَوَاتِهِ حَسْرَةً عَلَيْهِ.

شَيْئَانِ يَنْقُشَانِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ مَتَرُخُ الشَّبَابِ وَخُلَّةُ الْأَشْرَارِ
لَا حَبَّذَا الشَّيْبُ الْوَفِيُّ وَحَبَّذَا غَصْنُ الشَّبَابِ الْكَائِنُ الْغَدَّارِ

٧- وفي زيادات المسند من رواية أبيه سفيان محبوب بن الحارث عن الربيع ابن حبيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبكاً بك قبل هرمك ، وصحنك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفرغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك »^(١) . فحلى الإنسان أن يبادر إلى اغتنام الفرصة ، وأن يجعل من عمره شاهداً له لا شاهداً عليه ، بما يُقدّمه فيه من صلحات الأعمال وجلائل الطاعات .

٨- هذا وللوقت خصائص ومزايا لا توجد في غيره :
منها أنه سريع التقصي سريع التصمّم ، وكل يوم يُقَرَّبُ الإنسان إلى حقيقته المعلوم وأجله المسمّى ، وكفى علم الإنسان ذلك فحريّ به وجديراً أن لا يترك لحظة من لحظات عمره فيما لا ينفعه . يقول الشيخ الأديب العلامة أبو مسلم البهلائي رحمه الله :

استنبط العلم وزكّ العمل	ولا تعيش بخيرة سبّه للاً ^(٢)
لا تترك الأنفاس في الهزل سدى	أدرك من جدّ وفي أجدّ العلا
جوهره النفس إذا صبغتها	في لعب لم تلب عنها بدلا
رشحك الحقّ لأمر حبل	تذكره إذا ركبت الجلا
لو لم يردّ قربك من جنابه	لم يهبّ العقول ويهدي السبلا ^(٣)

٩- ومن خصائص الوقت أيضاً أن كلّ لحظة من اللحظات التي تمرّ على الإنسان لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تعود إليه مطلقاً ، يقول أبو مسلم أيضاً :

(١) الجامع الصحيح ، الحديث رقم ٨٩٦ .
(٢) السبّه للاً : هو غير المكترت ، لا في عمل الدنيا ولا آخرة . القاموس المحيط ص ١٣٠٩ .
(٣) أبو مسلم ، الديوان ص ٤٥٧ .

تَوَدَّعُ الْأَنْفَاسَ لَا تَبْكِي لَهَا
وَالْكُلُّ مِنْهَا رَاحِلٌ بِبَضْعَةٍ
وَأَخِرُ الْأَنْفَاسِ يَرْجُو وَقْتَهُ
وَرَبُّهَا فَكَّرَتْ فِي تَأْخِيرِهِ
فَوَدَّعُ الْبَاقِيَ مِنْهَا مَخْلُصًا
وَرَجَعَ مَا وَدَّعَتْهُ لَا يَرْتَجِي
مِنْ أَجَلٍ مُقَدَّرٍ عَلَى شَفَا
فَهَلْ تَرَى تَأْخِيرَهُ إِذَا دَنَا؟
يَكُونُ أَدْنَى لَكَ مِنْ فِكْرِ الْحِجَا
بِالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ فِي الْلَقَا^(١)

١٠- ويقول أيضاً في نفس القصيدة المقصورة :

يُبَادِرُ الْكَيْسُ أُخْرَى عُمَرِهِ
إِذَا تَوَلَّى أَمَدٌ مُؤَقَّتٌ
وَكُلُّ مَا تَلْبَسُهُ مِنْ جِلَّةٍ
فَيَرْتَقُ الْخَرَقَ وَيُوثِقُ الْعُرَى
لَمْ يَبْقَ لِلرَّجْعَةِ مِنْهُ مَرْتَجَى
يَعْرُوهُ مِنْ كَرِّ الْجَبِيدَيْنِ الْبَلَى^(٢)

١١- وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ سَلَفَنَا الصَّالِحَ عُنُوا أَسَدَّ الْعُنَايَةِ بِالْإِنْتِفَاعِ
بِأَوْقَاتِهِمْ، حَتَّى بَلَغُوا إِلَى مَا بَلَغُوا إِلَيْهِ مِنَ التَّمَكُّنِ فِي الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ،
وَعِنْدَمَا أَهْمَلُ طُلَّابُ الْعِلْمِ الْإِنْتِفَاعَ بِأَوْقَاتِهِمْ وَالِاسْتِفَادَةَ مِنْهَا صَارُوا
إِلَى تَأْخِيرِ مُسْتَمَرٍّ، حَتَّى اضْمَحَلَّ الْعِلْمُ أَوْ كَادَ أَنْ يَضْمَحَلَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

١٢- وَمِنْ خِصَائِصِ الْوَقْتِ أَنَّه ذُو أَثَرٍ كَبِيرٍ فِي الْوَاقِعِ، سِوَاهُ فِي حَيَاةِ
الْفَرْدِ أَوْ حَيَاةِ الْمَجْتَمَعِ، وَلَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ الْوَقْتَ هُوَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ،
وَالْأُمَمُ وَالشُّعُوبُ لَمْ تَنْهَضْ إِلَّا بِتَسْخِيرِ أَوْقَاتِهَا فِي أَحْسَنِ وَمَعَالِي الْأُمُورِ، وَلَا
نَحْبُ مَا سَمِعْتَهُ عَنْ أَوَائِلِنَا مِنَ الْأَمْجَادِ الَّتِي حَقَّقُوهَا، فَأُولَئِكَ قَوْمٌ عَلِمُوا

(١) أبو مسلم؛ الديوان ص ٤٤.

(٢) نفسه ص ٣٣٨.

وَلِجَبِيدَيْنِ: هُمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ - الْقَامُوسُ لِلْمَحِيطِ ص ٣٤٦.

(١) فَعَمِلُوا ، وَلَنَا أَنْ نُسَرِّحَ الطَّرْفَ فِي آثَارِهِمُ الْبَاقِيَةِ وَأَعْمَالِهِمْ
أَخَالِدَةَ لِنُدْرِكَ صَدَقَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ الْعَيَانُ كَالْخَبَرِ .

١٣- وَأَسْوَاقُ الْقَارِيءِ هُنَا جَمَلَةٌ مِنْ كَلِمَاتِهِمُ الْمَضِيئَةِ وَمَوَاقِفِهِمُ الْمَشْرُوقَةِ
لَيَرَى الْحَقِيقَةَ مِثْلَةَ أَمَامِ عَيْنَيْهِ وَيَعْرِفُ مَنْ هُمْ الرِّجَالُ .

١٤- قَالَ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ (ت ١٠١هـ) رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ : « إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَحْمِلَانِ فِيكَ ، فَاعْمَلْ فِيهِمَا » .

(١) أَصْرِبُ لِلْقَارِيءِ هُنَا - أَمْثَلَةٌ تَبَيَّنَ حَالُ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ وَمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ عِزَّةٍ وَرَفْعَةٍ :
١- قَالَ الشُّمَّاخِيُّ فِي سِيرِهِ ١٣٩/٢ : « وَتَجَدَيْتُ : مَوْضِعٌ مَعْلُومٌ بِقَبْلَةِ أَرْبَعٍ ، وَلَيْسَتْ بِعَبِيدٍ مِنْهُ ،
وَاجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ أَهْلِ الدُّعْوَةِ وَالْعِلْمَاءِ وَالطُّلَبَةِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ مَا لَمْ يَوْجَدْ فِي غَيْرِهِ ، وَعَدَّ فِيهَا مِائَةَ عَالِمٍ لَا
يُرَدُّ أَحَدُهُمْ مَسْأَلَةً إِلَى الْآخِرِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْأَدَبِ وَالْكِبَرِ ، وَفِيهَا قَبْرُ أَبِي نُوحٍ ، وَمِثْلَانِ يَحْفَظُونَ مَعْنَى
كُتَابِهِ ، وَثَمَانُونَ طَالِبًا تَوَاقَمًا ، وَسَائِرُ الطُّلَبَةِ كَثِيرٌ ، وَيَحْضُرُ الصَّلَاةَ ثَلَاثُمِائَةِ فَارِسٍ ، وَإِذَا كَبَّرَ تَكْبِيرَةً
الْإِحْرَامِ نَفَثَ الْمَوَاشِي .. وَهَذَا فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ . وَدَخَلَ عَامِلٌ لَصْنَهَا جَعَةً وَرَأَى كَثْرَةَ الْعَرَبَانَةِ وَكَثْرَةَ
الْحَقْلِ وَضَيْقَ الْمَوْضِعِ فَاعْتَقَدَ أَنَّ هُمْ يَدْنُسُونَ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالْخَلَا وَالسَّمَادِ ، فَدَارَ فِيهَا وَخَوَّلَهَا فَلَمْ يَنْظُرْ
بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُهُ عَيْنُهُ وَيَتَغَابَهُ نَفْسُهُ ، فَقَالَ - وَقَدْ مَدَّ يَدَهُ بِسَيْفِهِ - : مَا يَخَافُ النَّاسُ إِلَّا مِنْ هَذَا أَوْ
مِنْ اللَّهِ ، فَهَذَا - بِعَيْنِ السَّنَفِ - لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ ، وَمَا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا خَوْفُ اللَّهِ » .

٢- وَقَالَ الشُّمَّاخِيُّ أَيْضًا فِي السَّيْرِ ١٨٧/٢ : « وَبِالْجَمَلَةِ إِنَّ جَبَلَ نَفُوسَةٍ لِحْتَوَى عَلَى الْكِرَامَاتِ وَعَلَى كَثْرَةِ
الصَّالِحِينَ وَالْعِلْمَاءِ مَا لَا يَوْجَدُ بغيرِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ الْأَزْمِنَةِ لَا تَحْتَاجُ فِيهِ قَرِيبَةً إِلَى قَرِيبَةٍ لِلْفَتْيَا ،
إِلَّا لِجَنَّاوَنٍ وَوَبُخُوٍ وَتَنْدَمِيرَةٍ لَا تَحْتَاجُ دَارًا إِلَى دَارٍ . وَقَالُوا : اجْتَمَعَ فِي لِجَنَّاوَنٍ سَبْعُونَ عَالِمًا فِي
أَيَّامِ أَبِي عَبِيدَةَ عَبْدِ الْكَمِيدِ مِنْ أَهْلِ وَلَا يَتَهُ . وَذَكَرَ أَنَّ لِمَاءَ نَفُوسَةٍ فِي تِلْكَ الْأَعْصَادِ إِذَا وَرَدَنَ
أَوْ خَرَجْنَ إِلَى الْحَطَبِ لَا يَرْجِعْنَ حَتَّى تَتَذَكَّرْنَ جَمِيعَ مَسَائِلِ كِتَابِ مَا طُوسَ » .

٣- وَنَقَلَ الشُّعَيْخُ السَّامِيُّ فِي تَحْقِيقِهِ ٢٤/٢ عَنْ الشُّعَيْخِ أَبِي نُبَهَانَ جَاعِدِ بْنِ حَمْسٍ الْخُرُوصِيِّ قَوْلَهُ فِي الْإِمَامِ نَاصِرِ
بْنِ مُرَيْشِدٍ : « فَضَّلْتُ هَذَا الْإِمَامَ يُزَاهِمُ فَضْلَ الْإِمَامَيْنِ : الْكَلْبَدِيِّ بْنِ مَسْعُودٍ وَسَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، إِلَّا أَنَّهُ
يَضُوقُ ، لِأَنَّ الْحَدَلَ كَثُرَ فِي زَمَانِهِ ، وَلَطَالَ مَكْحَثُهُ وَعُغْمَرُ ، وَكَثُرَ فِي زَمَانِهِ الْعِلْمُ وَالِدِينُ وَالْوَرَعُ ... حَتَّى أَنَّ مَنْ
يَبِيعُ اللَّحْمَ وَيَبِيعُ الْبَصَلَ فِيهِمْ مَنْ يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ قَاضِيًا أَوْ وَايَا أَوْ خَازِنًا أَوْ وَكِيلاً لِكثْرَةِ أَمَانَتِهِمْ وَعِلْمِهِمْ » .

(٢) عَبْدُ الْفَتْاحِ أَبُو غَنَةَ : قِيَمَةُ الزَّمَنِ عِنْدَ الْعِلْمَاءِ ص ٢٧ .

١٥ - ومن غرر كلام العلامة ابن بركة (ت ٣٦٢ هـ) المحفوظ عنه قوله في علم الشريعة : « هذا علم لا يدركه إلا من سهر ليله بالثلاوة ، واشتغل نهاره بالبحث عن الرواية ، حتى يحفظ الآيات ، ويعرف المحكمات من المتشابهات ، والناسخات من المنسوخات ، فأما من نبذ القرآن وراء ظهره ، وقطع بالبطالة أيام عمره ، ولم يتعرض للحفظ فيها ، وهو لا يقف على معانيه ؛ لم يكن له عدو أعدى من لسانه ، ولا ناصح أعدل من شأنه »^(١).

١٦ - وعن الشيخ سعيد بن إبراهيم ^{من أصحابنا المخاربة} (ق ٥ هـ) رحمه الله أنه قال : « لا ينبغي للرجل أن يفني عمره إلا في ثلاثة : أحدها : أن يأخذ زاده ويطلب العلم ، ويعلمه لمن يجهله . والثانية : أن يأخذ رشن بعيره يبتغي الربح من الحلال فيأكله . والثالثة : أن يأخذ أداة العمل من الحديد ، يخرج الماء ، ويغرس الأشجار المثمرة في المواضع التي لم تكن فيها أولاً »^(٢).

١٧ - وقال أبو سعيد يخلفتان بن أيوب المسناني (ق ٥ هـ) : « شئ الليالي على المسلم ليلة لم يستفد فيها فائدة »^(٣).

١٨ - وقال الشيخ الزاهد درويش بن جمعة الحروي (ق ١١ هـ) رحمه الله : « ولأنه ما بين أحكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، فيا حسرة على ذي عقل أن يكون عمره عليه حجة ، وأن تؤديه أيامه إلى الشقوة »^(٤).

(١) الكندي ؛ المصنف ٢٨/١

(٢) مجهول ؛ المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة . ص ٣٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٣

(٤) درويش الحروي ؛ الفكر والاعتبار (مقدمة المحقق) ص ٣٢

نقل عن : درويش الحروي ؛ الدرر الفاخرة في كشف علوم الآخرة (مخطوط) .

١٩ - ومن نظم الشيخ أبي مهدي عيسى بن إسماعيل بن موسى (ت ٩٧١ هـ) وهو من

تلاميذ الشيخ عمي سعيد الجزبي :

ومرّ : تَفْتُهُ لِحْظَةً فِي عَمْرِهِ تَكُن عَلَيْهِ حَسْرَةً فِي قَبْرِهِ
يَبْدُو لَهُ شَمَّ خَفِيٍّ أَمْرِهِ
ومرّ : يَقُلْ إِنِّي صَغِيرٌ أَصْبِر ثُمَّ أَخَافُ اللَّهَ حِينَ أَكْبُرُ
وَهُوَ فِي كُلِّ أَوَانٍ يُبْصِرُ^(١)
فَارَبَّ ذَاكَ غَرَّهُ إِبْلِيسُ وَقَلْبُهُ مَقْفَلٌ مَطْمُوسُ
مَذْذَبٌ وَرَأْيُهُ نَحِيسُ^(٢)

٢٠ - ويقول الشيخ محمد بن إبراهيم الكندي (ت ٥٠٨ هـ) صاحب

بيان الشرع في أرجوزته المسماة (النعمة) :

وقال قولاً شيقاً أبو الحسن وهو علي البسيوي ذو الفطن
بقية الأشياخ في خير الزمن : مَنْ لَمْ يَكُنْ لِدِينِهِ أَوَّالَ سَنَنْ
يَعْرِفُهُ مِثْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ لِأَخِيرِ فِيهِ ، إِنَّهُ ذُو لُبِّسِ
يَصْبَحُ فِي جَهْدٍ وَفِيهِ يُمْسِي نَجْوَاهُ طَوَالِحُ بِالنَّحِيسِ
فَانْبَدَ مَخْلُوعًا دَرِينِ الرَّجْسِ نَقُضُّ عَلَى نَقْضِ رَهْنِ النُّكْسِ

فَانْهَضْ إِلَى الْعِلْمِ تَالِقَ الظُّفْرِ فَلَا تَرَى الْعَاجِزَ يَجْنِي الثَّمَرَا
مَنْ كَانَ لِلْعِلْمِ مُجِدًّا أَذْرَكَهُ طَوْنِي لِمَنْ فِي قَلْبِهِ قَدْ مَلَكَهُ^(٣)

(١) يُبْصِرُ الْأَمْوَاتَ مِنَ الشَّبَابِ . (من تعليق الشيخ محمد علي دبوز)

(٢) محمد علي دبوز؛ نهضة الجزائر الحديثة ج ١/ ص ٢٥١ - ٢٥٢

(٣) محمد بن إبراهيم الكندي؛ كتاب النعمة ، ص ١١٣ - ١١٤ .

٩١- ومن روائع أقوال الشيخ العلامة خلفان بن جميل السبياني (ت ١٣٩٠هـ)

رحمه الله :

يَا نَفْسُ مَا أَمْسَ مِنْ أَيَّامِ عَمْرِكَ إِذَا خَلَّتْ فَلَا تَحْسِبِي مَا كَانَ عَنْكَ خَلَا
يَا نَفْسُ إِنَّ غَدًا لَا تَعْلَمِينَ بِهِ لِمَنْ يَكُونُ لَعْلًا أَحْبَلُ مَا وَصِلَا
يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا يَوْمٌ فَاجْتَهْدِي قَبْلَ الْغُرُوبِ وَلَا فَاتَ وَارْتَحِلَا^(١)

٩٢- وقال أيضاً :

لَا تُذْهِبِ الْعُمْرَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ وَفِي الْمَعَاصِي فَهَذَا بئْسَ مَا فَعِلَا^(٢)
مَنْ ضَيَّعَ الْوَقْتَ فَمَا لَيْسَ يُضِلُّهُ يَبُوءُ بِالْمَقْتِ وَلِخِذْلَانٍ مُنْخِذِلَا^(٣)

٩٣- ولئن كان طَلَبُ العلمِ مِنْ أَشْرَفِ مَا صُرِفَتِ الْأَيَّامُ لِأَجَلِهِ؛ فَقَدْ أَدْرَكَ

ذَلِكَ مَشَايِخُنَا الْأَوَّلُونَ، فَجَعَلُوا الْكِتَابَ خَيْرَ أَنْبَسٍ، وَرَضُوا بِهِ أَحْسَنَ جَلِيسٍ،

وَأَسْمَعَ إِلَى قَوْلِ الشَّيْخِ الْفَصِيحِ يَحْيَى بْنِ رَبِيعَةَ الْكَنْدِيِّ (ت ١٣٥٧هـ) :

نَدِيمِي كِتَابِي بِهِ نَشُوتِي إِذَا مَا أَحْسَسَى الْخَيْرُ كَأْسَ الْحَيَا
أُرَدِّدُ طَرَفِي فِي سَطْرِ وَصُحُفِ لَقَدْ صَارَ إِلَيَّ مَا دُمْتُ حَيًّا
فَذَاكَ طَبِيبِي قَرِيبِي نَسِيبِي أَحَبُّ حَبِيبِ عَزِيزٍ عَلَيَّا
بِهِ هَيَمَانِي بِطُولِ زَمَانِي وَلَسْتُ تَرَانِي أَهِيْمُ بِمَيَّا^(٤)

٩٤- وقال الشيخ بشير بن سعيد بن عبدالله بن أبي سبت (ق ١١هـ)

مَتَأَلَّمًا وَمَتَحَسِّرًا عَلَى فَقْدِ كُتُبِهِ الَّتِي احْتَرَقَتْ :

بَكَتْ عَيْنِي عَلَى كُتُبِي بَدَمَحٍ وَاكِفٍ سَكَبٍ

(١) الشيخ خلفان بن جميل ؛ بهجة المجالس ص ١٣٧

(٢) نفسه ص ١٤٥

(٣) نفسه ص ١٤٦

(٤) الشيخ حمد بن سيف البوسعيدي ، قلائد الجمان ص ٤٥٩ .

وعيني طالما سهرت
وبالإصباح مجتهداً
لوجه الله مُحْتَشِباً
لها بالليل في طَرَبٍ
وبَدَلِ النفسِ في الطَلَبِ
ليوم فيه مُنْقَلَبِي (١)

٢٥- وقال الشيخ الفقيه حَلَف بن سنان الخافري (ق ١٢هـ) رحمه الله:

لنا كُتُبٌ في كل فنٍّ كأنها
جَرَى حُبُّها مِنِّي وَمِنْ كُلِّ عَالِمٍ
فَلَا أَبْتَغِي مَا عِشْتُ خِلاًّ مُؤَانِسًا
جَنَانٌ بِهَا مِنْ كُلِّ مَا تَشْتَهِي النَّفْسُ
زَكِيٍّ أَكْبَى وَالْفَهْمُ حَيْثُ جَرَى النَّفْسُ
سِوَاهَا فَنِعْمَ الْخَلُّ لِي وَهِيَ الْأُنْسُ (٢)

٢٦- وَصَدَقَ الشَّيْخُ خَالِد بن هلال الرحبي (ق ٤هـ) الذي يقول:

الْعِلْمُ أَنْفَعُ مِنْ جُنْدٍ وَمِنْ مَالٍ
فَاسْهَرِ لِمَطْلَبِهِ عَيْنِيكَ مَجْتَهِدًا
حِينَ تَطَالِعُ أَسْفَارَ الْعُلُومِ وَأَحْزَنَ
حَتَّى تَرَى الْعِلْمَ مُنْقَادًا أَمَامَكَ أَوْ
إِنَّ أَنْتَ لَمْ تَتْرِكِ النَّوْمَ الَّذِي دَوْلَمَ
فَالزَّمْ مَنَامَكَ إِنَّ الْعِلْمَ يَطْلُبُهُ
لِلْمُهْتَدِينَ وَأَعْلَى كُلِّ ذِي بَالٍ
وَاتْرِكْ مَقَالََةَ لَوَامٍ وَعَدَّالٍ
يَمَانًا قَسَائِلُ فِيهِ كُلُّ مِفْضَالٍ
أَقْصِرْ عِنَانَكَ دُونَ الْمَنْصِبِ الْعَالِي
تُجِييَ الْيَلِيَّ وَلَمْ تُلْحِجْ بِتَسْأَلٍ
لِلَّهِ كُلُّ أَصِيلِ الرَّأْيِ رَبُّ بَالٍ (٣)

(١) الشيخ حمد بن سيف، مرجع سابق ص ٣١

و: رجب عبد الكريم، الإحصائية في مصر والمغرب ص ١٧٦

(٢) رجب عبد الكريم، مرجع سابق ص ١٧٥ .

(٣) الشيخ خلفان بن جميل، بهجة المجالس ص ٢٢٨ .

والرثال: الأسد، والذئب . القاموس المحيط ص ١٢٩٦ .

٢٧ - لقد حثَّ الإسلامُ على البكور - وهو الاستيقاظ مبكراً - ، فينهى الإنسان المسلم نهياً تكريهياً عند كثيرٍ من العلماء أن ينام بعد صلاة الفجر^(١) ، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بوراك لأمتي في بُكورها » . ويُذكر عن الخليل بن أحمد أحد عقلاء بني آدم قوله : « أصفى ما يكون ذهن الإنسان في وقت السَّحر »^(٢) .

٢٨ - وقد كان السلفُ الصالح رضوان الله تعالى عليهم يتشددون على مَنْ يروُّنه نائماً بعد صلاة الفجر أو في وقت الضحى ، حتى أن ابن عباس رضي الله تعالى عنه روي عنه أنه رأى أحد أبنائه نائماً ، فلكزه برجله ، وقال له : « قُمْ ، لا أنام الله عَيْنَكَ »^(٣) .

٢٩ - وسأل سائلُ الإمامَ القطبَ (١٣٢٥هـ) رحمه الله عن قيام الليل إن كان يُفضي به إلى النوم بعد صلاة الفجر ، فأجابته : « اترك بعض قيام الليل تحرزاً عن أن تنام بعد صلاة الفجر » وقال أيضاً : « فلا تنم بعد صلاة الفجر فإنه يمنع بعض الرزق كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، بل اشتغل بعمل ولو دينوي ، وقم قبل الفجر في أيِّ أجزاء الليل شئت »^(٤) .

٣٠ - ويقول شيخنا الغازي حفظه الله : « إنَّ هناك فرقاً كبيراً واضحاً بين الإنسان الذي يستقبل يومه بجِدٍّ واجتهادٍ ونشاطٍ في طاعة مولاه وفي كسب قوته ومعيشته ، وبين الذي يَحْطُ في نوم عميق إلى أن ينتصف النهار أو يكاد ، فالنوم في تلك الساعة يقضي على بركة الوقت ، والاستفادة من ذلك الوقت لا سيما لطلاب العلم خاصة أمرٌ ضروريٌ ومهم »^(٥) .

(١) الغازي ، الوقت عماراً أو دماراً . (محاضرة مسجلة) .
 (٢) أبوغدة ، قيمة الزمن عند العلماء . ص ١٠١ . والبساطي ، إتحاف الأعيان ١٤/١ .
 (٣) الغازي ، مرجع سابق .
 (٤) كشف الكرب من أجوبة الشيخ القطب ٨٣/٢ .
 (٥) الغازي ، مرجع سابق .

٣١ - فينبغي للمسلم أن لا يكل ولا يمل من طلب العلم ، وأن لا تفتّر هِمَّتُه عن السعي في تحصيله ، فهذا إمامنا أبو الشعثاء جابر بن زيد (ن ٩٣ هـ) رحمه الله خَرَجَ يَتَوَكَّأُ وهو ابن سبعين سنة ، فقيل له : أين تذهب يا أبا الشعثاء ؟ فقال : « أَتَعَلَّمُ ديني »^(١) .

٣٢ - وقد تأسَّفَ أبو الربيع سليمان بن هارون الملوشتائي (ق ٤ هـ) لما وصلته كُتُبٌ من فَرَّانٍ فلم يستطع قراءتها لكِبَرِهِ وضعف نظره ، وقال : « يا ليتني أدركتهم في شبِيبتي » . لكنه لم يستسلم ، بل طَلَبَ مِنْ تلاميذه أن يقرأوا له ، فكان الواحدُ منهم يقرأ عليه حتى يفتّر ، ثم يرجع الآخر فيقرأ عليه إلى آخر الليل^(٢) .

٣٣ - « وكانَ القطبُ قد أعطى نفسه للعلم ، فكانت القراءة عادةً فيه لم تفارقه إلى أن لحقَ ربّه ، يدرس في ليله ونهاره ، وقد أعطاه الله مع الحافظة العجيبة والذكاء النادر جسمًا قويًّا وبنیانًا ثامًّا ، وبصرًا حديدًا لا يكل مهما طالت القراءة في الكتابة الرديئة والخط الدقيق . إنَّه إلى آخر عمره - وهو شيخٌ في السادسة والسبعين - يُمسك الكتابَ مُحاذيًا به أسفل صدره ، ويقرأ وهو متكئ إلى الحائط ، لا يرفع الكتابَ إلى وجهه أو يَنَكِبُ عليه كما يفعل ضعفاء البصر . وقد استطاع بهذه القوى التي دجَّجَها الله بها أن يدرس الخزانة الكثيرة من الكتب ويعكف على الدرس والتحصيل طول عمره ، لا يكل ولا يمل ، ولا يقنع مغترًّا بما عنده كما تفعل الرِّفَاقُ المنتفخة الفارغة في هذا الزَّمان »^(٣) .

(١) الحجة الواضحة في ردِّ التلفيقات الفاضحة ؛ للإمام السالمي (مخطوط) . ص ١ .
(٢) هكذا ورد اسمه في المصدر الذي أنقل منه هنا ، وورد في غيره باسم : أبو هارون موسى بن هارون الملوشتائي ، وقد أشرتُ إلى قصته بالتفصيل فيما يأتي ، فينظر في ذلك .
(٣) أجوبة علماء فَرَّانٍ ، بتحقيق الدكتور النامي . ص ٩١ (مقدمة المحقق) .
نقلًا عن : البخطوري ؛ سير مشايخ نفوسة ، ج ٢ : ٧٠ .
(٤) ببوز ؛ نهضة أجزائر الحديثة . ٣٢٠/١ - ٣٣٠ .

٣٤- وأورد الشماخي في ترجمة أبي هارون موسى بن هارون الملو شائي (ق ٤ هـ) :
 « وعادته إذا صلى العشاء الآخرة وأكمل وزده جعل للطلبة المجلس هونا
 من الليل ، ثم ينصرف إلى داره ، ومعه محمد بن زكريا البخطوري ومحمد بن يفون
 فيقرأ عليه أحدهما حتى يفتر ، ثم يقرأ الآخر إلى آخر الليل ، وذلك أن كثيراً أتته
 من فزان وضعف عن النظر والقراءة بالكبر ، ثم يقوم من المجلس مشتغلاً بصلاته ،
 فإذا أذن وصلى صلاة الفجر أخذ في القراءة حتى تطلع الشمس ، ثم يجعل لهم
 المجلس ، فإذا افترقوا جلس للقضاء بين الناس إلى الزوال ، فيقوم فيشتغل
 بأمر الصلاة ، ولذلك قال بعض : لا ندري متى ينام !! » (١)

٣٥- وهذا الإمام أبو محمد وارسفلاس بن مهدي (ق ٥ هـ) العالم بن العالم
 « لما توفي أبوه ركب بغلته ، وأتى شروس ، فسأله بعض عن مسألة فلم
 يحسنها ، فقال له آخر : لو سألت عنها بخله أباك أجابتك عنها ! ...
 فانكسرت لذلك نفسه ، ودخل قصر وكم ، وفيه خزانة نفوسة ، فمكث
 فيه اثني عشرة سنة يدرس العلم ... ومكث في داره يدرس ديوان أبيه ،
 ولا يرى خارجاً إلا لحاجة الإنسان ، فقام في العلم ، وجره المشايخ بكثرة
 الأسئلة في المشكلات وغيرها ، فما وجدوا عنده خطأ » (٢)

٣٦- ولما سجن أبو محمد وارسلان بن يعقوب المزائي (ق ٤ هـ) شكاه
 أهل السجن ، لكونه يسهرهم بالدراسة والقراءة ! فأخرجوه وأطلقوه ،
 ولما سئل بعد ذلك عن السجن قال : يصلح لدراسة القرآن ! (٣)

(١) الشماخي؛ السير ، ٣/٢

(٢) نفسه ١٩/٢

(٣) أبو زكريا؛ السيرة ١/٢٠٠ والدرجيني؛ طبقات ١/١٢٦ و: الشماخي؛ السير ٣٦/٢ ، ٥٥-٥٦

٣٧- لما أبو الربيع سليمان بن يخلف المزائي (ت ٤٧١ هـ) رحمه الله فقد أفنى شبابه في القراءة، وبقية عمره في الإقراء، كما يصفه الشماخي^(١).

٣٨- واستمع إلى ما يحكيه أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر (ت ٥٠٤ هـ) عن نفسه؛ يقول: «كنت أقرأ على الشيخ سعدون^(٢)، فجازت مسألة ذبيحة الأقف، قال: في أكلها قولان. فلم ينسبها، فدخلت إلى الديوان، وكان بجبل نفوسة ديواناً شتمل على تأليف كثيرة، فلازمت الدرس أربعة أشهر، لا أنام إلا فيما بين أذان الصبح إلى صلاة الفجر، فتأملت ما فيه من تأليف أهل المشرق، فإذا هي تقرب من ثلاثة وثلاثين ألف جزء، كلها لأهل المذهب فتخيرت أكثرها فائدة فقرأته^(٣)».

٣٩- ولا بُدَّ لسفينة الزمن أن تقف وقفة متأنية عند «بحر العلم الزاخر، المسخر للنفع فتري الفلك فيه مواجر»^(٤) الإمام العلامة المفسر المحدث الفقيه الأصولي اللغوي الجدي الفلكي الرحالة أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني (ت ٥٧٠ هـ) رحمه الله، يقول عنه الشماخي: «ذكر أنه لازم الدار سبعة أعوام، فلا يجده الزائر إلا ناسحاً، أو للأقلام باريًا، أو للدراسة فاعلاً، أو للحبر طابخاً، أو للدواوين مقابلاً، أو للكتب مسفراً...»^(٥).

(١) الشماخي: السير، ٨٢/٢

وعبارة الدرجيني في طبقاته ٤٢٥/٢

«أفنى في الدراسة أيام الشباب، وفي حفظ كتب الفقه كتاباً بعد كتاب».

(٢) لعلة شيخه: سعد بن يياف والنفوسي (ق ٥ هـ). انظر ترجمته في: معجم أعلام الإباضية ٣٥٥/٣

(٣) الدرجيني: طبقات ٤٤٥/٢، الشماخي: السير، ٩٠/٢
البرادي: رسالة في تقييد كتب أصحابنا (المطولة) ملحقة بكتاب الموجز لأبي عمار بتحقيق الطالبي ٢٨٧/٢.

(٤) هكذا وصفه الدرجيني في طبقاته ٤٩١/٢.

(٥) الشماخي: السير، ١٠٥/٢

٤- قال أبو العباس الدرجيني: « ولقد حدثنا بعض الثقات قال: وقفت ببلاذنا قسطنطينية وسوف وأريخ ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتاب العدل والإنصاف تأليف أبي يعقوب كلها بخط يده. وأما أنا فرأيت منها ثلاثاً ^(١) ».

٥- وأبو يعقوب أعجوبة من أعاجيب زمانه، نبغ في علوم شتى ويزورها أقرانه، ورحل إلى ديار كثيرة، وشهد له القريب والبعيد والصديق والعَدُو بالفضل، وترك من الآثار والمؤلفات ما جدد به المذهب وأحيا به الدين، منها « تفسير القرآن الكريم » و « العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف » و « الدليل والبرهان » و « مرج البحرين » في علم المنطق، و « ترتيب المسند » وهو المتداول الآن، و « رسالة في تراجم رجال المسند »، و « فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب » و « أجوبة فقهية ورسائل متنوعة » و « ديوان شعر » غاب أكثره وبقي منه القليل.

(١) الدرجيني: طبقات ٤٩٢/٢.

٤٦ - وذكر الشماخي في ترجمة أبيه ذكره يحيى بن أبي العز (ج ٧٤ هـ) رحمه الله أنه كان « شاكاً للكتب ، ولم يشغله العلم عن النسخ ، ولا النسخ عن العلم »^(١) قال : « ورأيت له كتباً كثيرة بخطه من التفاسير وشرح الدعائم والضياء وغير ذلك ، لا تملأ خزانة من خزائن كتب نفوسة من خطه »^(٢).

٤٧ - ويروي الشماخي أيضاً عن الشيخ أبي طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي^(٣) أنه دخل عند الحشاء الآخر إلى مسجد بلده جيطال ، وكان الشيخ عامر الشماخي (ت ٧٩٠ هـ) رحمه الله ينظر في كتاب ، فقعد إليه يسأله عن المشكلات والمبهمات ، إلى أن انفجر الصبح ، ولم يقف في واحدة ، فإذا سئل عنه بعد ذلك يقول : عامر وحيد عصره^(٤).

٤٨ - ويحدث القائم بمسجد القابل عن الإمام الخليلي (١٣٧٣ هـ) رحمه الله قبل إمامته فيقول : ذات ليلة قام بالفور بعد الصلاة ، فقعد على السراج يقرأ ، فلما خرج الناس وقفت على رأسيه ، فقال : ما تريد ؟ قلت : أطفئ السراج . قال : أريد أن أطالع قليلاً ، ثم أكفيك إطفاءه . قال : فرجعت عنه ونمت في بيتي ، وكانت من ليالي الشتاء ، وقمت قبيل الفجر إلى المسجد للأذان لصلاة الصبح ، فلما دخلت وجدت الشيخ كما هو وقت العشاء ، فوقفت على رأسيه فرائي ، فقال : قلت لك أنا أكفيك إطفاء السراج ، فاذهب أنت . قلت : يا سيدي ، ذهب فمت في بيتي ، والآن جئت لصلاة الصبح . قال : سبحان الله ما شررت بذهاب الليل . ثم ترك الكتاب^(٥).

(١) الشماخي ، السير ١٩٣/٢ .

(٢) نفسه ١٩٣/٢ - ١٩٤ .

(٣) نفسه ١٩٨/٢ .

(٤) الشيخ سعيد الحلبي ، اللؤلؤ الرطب ص ٤٣ .

٤٩- ولما وصل أبو بكر بأجرة قطع صلته بميزاب، وأعطى نفسه للعلم، إنه لا يأتيه من ميزاب إلا أخبار الفتن التي تشغل فكره، وتغوقه عن العلم، وكانت رسائل أهله إذا وصلته لا يقرأها، بل يضعها في كوة عميقة في حجرته، ثم يسد الكوة لكي لا يراها فتحدثه نفسه بقرآنها ! ولما أتم دراسته واستعد للرحيل فتح الرسائل وقرأها، فإذا أجل أسرتة قد ماتوا، ووجد في الرسائل من الأخبار المزعجة ما لو قرأه لقطع عن العلم^(١) .

٥٠- أما تلميذه الشيخ ضياء الدين الشميني (ت ١٢٣٣هـ) رحمه الله فقد عانى من قومه أشدّ الحناء، حتى إذا تأزّم الأمر بينه وبينهم، وأحس بخطر المؤامرة يجول بخلدهم، اعتصم بمحله، واستوثق برتاج بابه، فانكب على التأليف. أجل، اعتزل في محله، لا يفتح بابه في وجه أبناء بلده، فإذا طرق الباب أحدهم مستفتياً ناداه من داخل: ادخل ! فيقول له: إن الباب مقفل. فيجيبه الشيخ: أنتم الذين أغلقتموه على أنفسكم. اسأل ! فيجيبه من وراء الباب، اللهم إلا إذا كان السائل من إحدى القرى غير يسجن فإنه لا يمتنع عن فتح الباب، وظلّ على ذلك ملازماً داره مدة ثماني عشرة سنة^(٢) لا يخرج منها إلا إذا حزّب الأمة أمر ! وماذا كانت النتيجة؟

حصيلة ثرية من الكتب والنخائر العلمية، أغنى بها المكتبة الإسلامية وخلّد بها ذكره في العاملين^(٣).

(١) محمد علي دبور، نهضة الجزائر ٢٥٧/١

ويشبهه هذا قصة أبي محمد وسيلان المزائي لما رحل إلى نفوسة (انظرها في: طبقات الدرجيني ٣٧١/٢، وسير الشماخي ٥٦/٢) وقصة أبي عمّار عبد الكافي التناوتي (انظرها في: طبقات الدرجيني ٤٨٦/٢، وسير الشماخي ١٠٤/٢) وقصة سجميمان بن نصر النفوسي (انظرها في: سير الشماخي ١٣٧/٢).

(٢) وقيل: خمس عشرة سنة.

(٣) انظر: ضياء الدين الشميني؛ كتاب النيل وشفاء العليل، بتحقيق: بكلي عبد الرحمن بن عمر ص ١٥ (مقدمة المحقق).

٥١- وأترك المجال هنا للشيخ محمد علي دُبُوز (ت ١٤٠٢هـ) ليحدثنا بأسلوبه الجميل عن قطب الأئمة محمد بن يوسف الطفيش (ت ١٣٣٢هـ) رحمه الله؛ يقول دُبُوز: «كان الشيخ - وهو قطبٌ عند العلماء وفي درجة الاجتهاد - على هذه اللفظة للدرس، لم ينقطع عن القراءة الطويلة الحميقة والتحصيل المستمر إلى أن انتقل إلى ربه وعمره ست وستون عاماً.

وكان القطب يعمل أكثر من ست عشرة ساعة في ليله ونهاره، وكان لا يلهو إلا كدُّ الذهن في التأليف أو التدريس أو القراءة. وكان حريصاً على وقته لا يضيّع دقيقة منه، وكان يكتب أو يقرأ وهو على دابته مسافراً في البادية، حدثني المرحوم خادم العلم والعلماء والدنا الروحي السيد بكير بن عدُّون أنه كان يأخذ بلجام فرس القطب أو بجله وهو مسافراً إلى القرارة من بريان، فيقود فرس القطب، وهو لا يشتغل في طريقه إلا بالتأليف، له ألواح كثيرة يكتب فيها مسودة الكتاب، يضعها في خُرْجِه، ويضع الدواء في الخرج أيضاً على نحو لا يقلبها برجة السير، فيملاً تلك الألواح الكثيرة كلها بمسودة الكتاب قبل أن نصل القرارة، وإذا وصلنا اشتغل بتبويضها وكتابة غيرها، وكان خرج مملوءاً بكتبه التي يصطحبها معه، وإذا سافر إلى بلد من البلدان يهيئون له داراً خاصة به، ويعدون المصباح الكبير اللائق للتأليف والقراءة

(١) المسودة: هي نسخة الكتاب الأولى قبل تبويضه.

(٢) الخرج: وعاءٌ محروف. القاموس ص ٢٣٧.

(٣) الدولة: المخبرة. المعجم الوسيط ص ٣٠٦.

(٤) التبويض: تفريخ ما في مسودة الكتاب في النسخة النهائية.

في الليل، مع أنه لا يقيم في زيارته إلا الأسبوع والأسبوعين وأقل. وسافر إلى الحج بحرًا مرتين، وكان يؤلف في السفينة لا ينكف عن التأليف حتى يصل الحجاز !!» (١).

٥٢- «وكان القطب قوي البنية عارم الكيوية، وكان له في أغلب عمره ثلاث زوجات، وكان في شبابه، ما منهن إلا وهي ذات جمال بارع يحبها وتحبه، ولكنه لا يقضي معظم ليله في العطر والأحضان كالضعفاء، بل يبديت سراجة يشتعل معظم الليل إلى قرب السحر! وهو يؤلف لا يعرف النوم ولا يعرفه، وقد ظل منذ صدر شبابه إلى وفاته وهذه عادته في الليل، شهد بذلك زوجاته، وحدثني بذلك تلاميذه، وقد رصده الحرس فوجدوه لا ينام إلا نحو ثلاث ساعات بعد منتصف الليل!» (٢)

٥٣- «كان القطب ذا شخصية اجتماعية قوية، وكان يهتم بالمجتمع، ويعمل كل الوسائل لإصلاحه، ولكنه لحرصه على وقته لا يحضر الأعراس ولا يجيب دعوات الولائم، ولو كانت عند أقاربه، ولا يغشى الأسواق لكي لا يشغله الناس بالتوافه عن أعماله، وقد أمضى اثني عشرة سنة ولم يدخل سوق البلد، على قرب السوق من داره، وإنما أراد ناحية من المدينة مرًا إليها من أبعد طريق وتحاشى المرور من السوق» (٣).

٥٤- وبعد عدة مواقف رائعة في حياة القطب ذكرها الأستاذ دبور يقول معلقاً عليها :

(١) محمد علي دبور؛ نهضة الجزائر الحديثة ٣٩١-٣٩٠

(٢) نفسه ، ٣٩١/١

(٣) نفسه .

« بهذا الجد في الدرس، واقتناء الكتب، والحرص على الوقت، والعمل في الليل والنهار، والتمسك بالنظام؛ صار شيخنا قطباً في العلوم، وعلماً للنهضة الحديثة، وسع نطاقها، وهزم خصومها، ودخل بها في شبابها، وترك في العالم الإسلامي سيما في المغرب دويلاً لا زال يرنّ في آذان العارفين إلى اليوم^(١) ».

٥٥ - ثم يواصل دبور قائلاً - بعد أن ذكر جدول الشيخ اليومي - :
« وكان يبدأ التدريس في طلوع الشمس فيستمر إلى الظهر، وكانت تستغرق من الوقت ست ساعات متصلة يقضيها القطب كاملة لا يقوم من مجلسه ولا يستريح، وطبقات التلاميذ والفنون تترى عليه، وقد يكل الطلبة ولا يكل ».

٥٦ - « إن لذته الكبرى في القراءة والتأليف والدرس، لا يستطيع منظر جميل أو محفل بهيج أولده أخرى أن تغزو قلبه فتجذب به من مكتبته ومعهد، ... وكم من مرة تخرج المدينة كلها إلى حفلة عرس، أوللتفرج على الأودية إذا سالت ... كل المدينة تنهل لذاتها من مناظر الوادي إلا القطب ! فإنه يحمد الله على أن أغاث البلاد، ثم يحكف على دروسه للتلاميذ، وعلى أعماله اليومية لا يوقفها كما فعل غيره ... ».

٥٧ - « كان القطب يحرص ويوحي بحب العلم إلى تلاميذه، ويريد أن يكون لذتهم الكبرى، ويكر على من يترك الدرس لمشاغ من زينة الدنيا ...
عاب على الشيخ أبي اليقظان وزملائه التلاميذ أن يتركوا قراءتهم ويخرجوا إلى

(١) محمد علي دبور؛ نهضة الجزائر الحديثة ٣١٠/١

(٢) نفسه ٣٦٧/١

(٣) نفسه ٣٦٧/١ - ٣٦٨

الْبَسَاتَيْنِ فِي وَقْتِ الْحَمْلِ ، فَقَالَ لَهُ : بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ ، نَزِيدُ أَنْ نَرَى أَوْدِيَةَ بَرِيَّانَ ،
لَقَدْ سَأَلْتُ ، وَالْمَدِينَةَ كُلَّهَا فِي السُّدُودِ تُتَفَرِّجُ . وَكَانَ إِبْرِيْقُ مَمْلُوءًا بِالْخَدِيرِ^(١)
أَمَامَ الْقُطْبِ ، فَرَفَعَ بِهِ يَدَهُ وَأَسَالَهُ فِي الطُّسْتِ قَائِلًا : أَتَزِيدُ الْخَدِيرَ ؟ هَاهُوَ
الْخَدِيرُ ، هَاهُوَ الْخَدِيرُ ، أَنْظِرْ إِلَيْهِ أَصْفَرُ مِنَ الْوَادِي ، تَفْرَجُ تَفْرَجُ ! فَضَحَكَ
تَلَامِيذُهُ ، وَضَحَكَ الْقُطْبُ ، فَأَذِنَ لِتَلَامِيذِهِ بِالذَّهَابِ إِلَى الْأَوْدِيَةِ ، أَمَّا هُوَ
فَبَقِيَ فِي دَارِ نَزْوَلِهِ ، مَعَ تَأْلِيْفِهِ ، لَا يَخْرُجُ وَلَا يَرْضَى أَنْ يَخْرُجَ !!^(٢) « .

٥٨- وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ هِمَّةُ الشَّيْخِ ، فَقَدْ بَدَأَ أَثَرُ ذَلِكَ وَاضِحًا فِي تُلَاْبِهِ ،
فَهَذَا تَلَامِيذُهُ النَّابِغَةُ الشَّيْخُ الضَّرِيصُ صَالِحُ بْنُ عَمْرِو لِحَالِي (ت ١٣٤٧هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ
أَقَامَ فِي حُجَّتِهِ الثَّانِيَةِ عَامًا كَامِلًا فِي الْحِجَازِ ، أَمَضَاهُ كُلَّهُ فِي الْقِرَاءَةِ الْمَفِيدَةِ
وَفِي مَجَالِسَةِ الْعُلَمَاءِ وَفِي الْعِبَادَةِ فِي الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ . « إِنِّي حَبَّهٌ لِلْعِلْمِ هُوَ
الَّذِي حَادَّاهُ لِلْحِجِّ مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَالْإِقَامَةَ عَامًا كَامِلًا فِي الْحِجَازِ ، لِيَخْلُوَ لِكُتُبِهِ
وَيُقِيمَ فِي أَشْرَفِ الْبَقَاعِ »^(٣) .

٥٩- « وَكَانَ قَدْ أَعْطَى نَفْسَهُ لِلْعِلْمِ ، لَا تَرَاهُ إِلَّا فِي مَجْهَدِهِ مَعَ تَلَامِيذِهِ يَلْقَى
الدُّرُوسَ ، أَوْ فِي مَكْتَبَتِهِ قَارِنًا أَوْ مُؤَلِّفًا ، أَوْ فِي الْمَسْجِدِ يُعْظِمُ النَّاسَ وَيُرْشِدُهُمْ ،
وَكَانَ حَازِمًا كُلِّ أَحْزَمٍ فِي أَعْمَالِهِ ، قَدْ جَعَلَ لَأَوْقَاتِهِ كُلِّهَا نِظَامًا دَقِيقًا لَا
يُخَالِفُهُ ، مُحِبًّا لِعَمَلِهِ كُلِّ أَحَبٍّ »^(٤) .

(١) يعني الماء .

(٢) الطُّسْتُ : وعاء معروف ، وفيه لغة بالسُّنِين .

(٣) محمد علي دبور ، نهضة الجزائر الحديثة ٣٦٩/١ .

(٤) نفسه ١٤٠/٩

(٥) نفسه ١٤٠/٩ - ١٤١

يقول الشيخ بيوض عنه : « هو في اعتقادي ومعرفتي خاتمة المحققين بعد الشيخ الطفيش ، لم يوجد
بعد الشيخ الطفيش مثله في ميزاب » . نهضة الجزائر ١٤٥/٩

٦٠- ولما تزوج المرة الثانية اختار زوجة مثقفة محبة للعلم، عارفة للقراءة والكتابة، « فكانت هي التي تقرأ له في الليل، يجلسان بعد صلاة العشاء في مكتبته، فتقرأ له بصوتها اكنون إلى بعد نصف الليل، وقد تستمر القراءة إلى الصبح، وهو في مجلسه مستوي يصغي في انتباه ونشوة لا يتعب ولا يمل، وهي على مصباحها تنابع القراءة في انتباه ونشوة لا تمل ولا تنحب ... وكانت هي التي تكتب له ما يؤلف في ليله، وتستخرج له ما يريد من كتب من خزائنه، كانت ليا ليهما للعلم لا يلذهما فيها سواه! »^(١).

٦١- وهذا الشيخ الحاج عمر بن يحيى (ت ١٣٣٩هـ) رحمه الله في بداية دراسته إذا خرج من دار التلاميذ يسرع إلى الغابة ليعمل مع والده، « وكان وهو يرسل الماء في أحواض النخل يحفظ ما يستطيع حفظه من المكتون، وربما اثكأ بصدرة على فأسه في الحقل وتوقف عن العمل وشرع يفكر في درسه ويسترجع مسأله . إن نفسه تحدّثه بأنه خُلِقَ للعلم! »^(٢).

٦٢- ولا ننسى جانب النساء، فهذه شقيقة الحاج عمر السيدة مامة بنت يحيى كانت ورعة مثقفة، « تكتب لوحها في القرآن فتضعه بجانب نولها، فتحفظ وتنسج، وتؤنس نفسها في منسجها بتلاوة ما حفظت من القرآن، وكانت تجلس للنسج والقراءة في مقصورة داخل الدار لكي لا يسمع صوتها من الشارع . يرحمها الله »^(٣).

(١) دبور، نهضة الجرائر ١٤١/٢

(٢) نفسه ١٦٨/٢

(٣) نفسه ١٦٥/٢

٦٣- ومما يروى عن الشيخ حبيب بن سالم أمبو سعيدي (ج: ١١٦٧هـ) أنه كان من عامة الناس في بادئ أمره ، وأصابه فقرٌ مُدقِّع ، وتوالَتْ عليه كثيرٌ من الضائقات المالية ، وكان رجلاً أعمى ، فضاقت ذراعاً بما هو عليه من سوء الحال ، حتى إنَّ نفسه الأمارَّة بالسوء سوَّكتْ له أن يقضي على حياته ، ولكن من لطف الله سبحانه وتعالى به أنَّ تنبَّهتْ لذلك خادمة له ، فأمسكتْ به قبل فوات الأوان ، ونهَّرتْهُ بشدَّة فائلةً له : أتريد أن تلقى الله منتحراً ؟! ها صرَّفتْ هِمَّتَكَ إلى طلب العلم . ففكر الرجلُ فيما قالت ، وتأمَّلَ في هذه النصيحة الغالية ، وجعلها نصبَ عينيه ، فصرف همته ولوى عنانه إلى طلب العلم النافع ، وبدأ بالتفقه في أمر دينه ، وعندما علِمَ منه أهلُ الصلاح رغبته في طلب العلم والتفرغ له أعانوه بما يقدرُون عليه من مال ، وجعلوا له مَنْ يقرَأ له من طلاب العلم ، حتى دُكرَ أنهم مكثوا على هذه الحال سبع سنين متواصلة ، كُلُّما نَحِبَ أحدُ الطلبة من القراءة حلَّسَ إليه آخرَ ليقرَأ له ، وهو قاعدٌ يستمع وينصت بانتباه ، ثم لما أروى ظمأه ونهلَ من مناهل العلم الشرعي الشريف خرَّجَ إلى مجتمعه فصارَ من كبار علماء عصره . (١) *

٦٤- ويحدثنا الشيخ سعيد بن خلف الخزوعي حفظه الله عن شيخه العلامة خلفان بن جميل السيابي (ت ١٣٩٢هـ) فيقول : « صَحِبْتُهُ اثني عشر عاماً ، فرأيت أوقاته موزَّعة في فضائل الأعمال ، شأن الكلمة من الرجال ، فلا تجده إلا مصلحاً ، أو ذا كرادعيا ، مستقبلاً المحارب ، أو تالياً الكتاب ، أو كاتباً أو مملياً فتوى ، أو حاكماً بفصل الخطاب في دعوى ، لا يخلو مجلسه من طالب علم أو مسترشد ، أو زائر في الله أو مسترشد ، لا يبخل بموجود ، كما لا يتكلف المفقود ، لا تسمع في مجلسه أحاديث الدنيا ، بل هِمَّتُهُ مَيَّالَةٌ إلى الصفات العليا » (٢)

(١) الخاربي ، الوقتُ عَمَارٌ أودمار (محاضرة مسجلة)

(٢) خلفان بن جميل السيابي ، فصول الأصول . (مقدمة المحقق) ص ٢٥ .

نقل عن : سعيد بن خلف الخزوعي ، أيام مع المرجوم العلامة الشيخ خلفان بن جميل السيابي ، ص ١٥٩

ورقة عمل قدمت للمندى الأدبي بسلطنة عُمان .

* ذكر القضاة ابن رزوق في الصحيفة القحطانية (ج ٥٨) ، والفتح المبين ١٤٤-١٤٦ .

٦٥- ويرى عن الشيخ السعدي (حي ١٢٨٤هـ) أنه نسخ كتابه الضخم « قاموس الشريعة الكاوي طرقها الوسيعة » ثلاث مرات بنفسه، والكتاب يتكون من تسعين مجلداً !

ويذكر أنه كان يحكف على نسخه طول الليل، ويشتعل قنديلاً يستضيء به، ويستمر على ذلك بعد صلاة الفجر حتى طلوع الشمس . وفي إحدى المرات كان مستغرقاً في النسخ وقد طلعت الشمس ولم يطفئ القنديل، فمرت به راعية، فلما رأت ذلك المشهد عجبت منه واتهمته بالجنون، إذ كيف يشتعل قنديلاً والشمس يملأ ضوءها الدنيا ؟! فله درّه ^(١).

٦٦- وقد اعتنى علماؤنا رحمهم الله بقراءة كتاب « بيان الشرع » للشيخ الكندي، والرجوع إليه في مسائل الأديان والأحكام .

قيل : إن الشيخ العلامة محمد بن مسعود بن سعيد البوسعيدي المنجي (ت ١٣٢٠هـ) كرر قراءته ستين مرة !

وقيل : ثلاثاً وسبعين مرة !

قال الشيخ البطاشي : « والعدد الأول ذكره بنفسه للشيخ الفقيه سالم بن فريش الشامسي - فيما سمعت - والله أعلم » ^(٢).

ويقول الشيخ أبو مسلم البهلافي رثياً فاضلي الجزيرة الشيخ سالم بن أحمد الراعي (ت ١٣٣٧هـ) :

ويا أسفاره نوحى عليه	وقري للبلا وسط الخزين
بيان الشرع هل لك من بيان	بيان الشرع هل لك من قرين
ويا تمهيد سيدنا الخليلي	تمهّد أن تعيش بلا خدين
فإن العالم المقياس أضحى	لحيداً بين أحجار وطن ^(٣)

(١) انظر : محمد بن عامر الكارثي ؛ إضاءة حول حياة الشيخ العلامة السعدي ص ٤

(٢) البطاشي ؛ تحاف الأعيان (ط) ٣١٠/١

وانظر : حمد بن سيف البوسعيدي ؛ الموجز المفيد ص ١١٩ .

(٣) أبو مسلم ؛ الديوان ٤٢٢ .

٦٧- ولأبي إسحاق الحصري (ق ه ه) رَبِّ السيف والفلم رحمه الله هذه الوصية الجامعة التي ضَمَّنَهَا كتابه « مختصر الخصال » في المنهج الذي ينبغي أن يسلكه طالب العلم ، قال رضي الله عنه :
« وَيَبْتَدِئُ كُلَّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَجْعَلُ دَهْرَهُ أَثَلَاثًا : ثَلَاثًا لِمَرْقَدِهِ ، وَثَلَاثًا لِمَعَاشِهِ ، وَثَلَاثًا لِمَعَادِهِ ، وَهِيَ أَحَقُّ بِاهْتِمَامِهِ ؛

● فوقت مرقده صدر من ليله وساعة من نهاره قبل الزوال في غير الشتاء .
● ويطلب المعاش فيما يعلم أنه غير شاغلٍ له .. ، فقد تكفل الخالق برزق عباده .

● ويجعل معاده أثلاثاً :

- درس علم عند خلوته وحضور ذهنه .
 - ودرس قرآن في وقته عند وحشته .
 - ودرس أدب عند فراغه من طلب معاشه
- ويخلط ذلك بنوادر العرب من الحكمة والشعر ، ليريح بذلك قلبه ، ووقت التلاوة حين الصبح إلى الشروق .. و يجتزئ من التلاوة بجزء من القرآن في كل يوم ، والله الموفق للخير .

وأجعل هذه الوصية منك اختتام لهذا المجموع ، وأسأل الله أن يحينني على إتمامه ، وهو حسبي وعليه اتكالي .